ملاحح النطق في بعض اللهجات العربية

Arabic pronunciation features

أ.د. علي عمار*

تتشابه لهجات اللغة العربية، منذ بداية العصر الجاهلي، في كثير من الخصائص والظواهر العامة، وهي وسيلة اتصال وتفاعل بين القبائل العربية المختلفة التي كانت تعيش ظروفًا متماثلة وأخرى مختلفة، تتعلق بالمكونات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية الطبيعية المادية والمعنوية والأدبية. حيث كانت بعض القبائل تحيا حياة بدوية تشوبها الشدة والقساوة والخشونة، وبعضها الآخر تحيا حياة حضرية فيها شيء من الدعة واللطافة.

كما تختلف تلك القبائل فيما بينها من حيث وتيرة التنقل والاستقرار والاختلاط، وقد أسهم ذلك في أن يكون لكل قبيلة لهجة خاصة تميزها عن غيرها - قليلاً أو كثيراً - في بعض المظاهر الصوتية، وبنية بعض ألفاظها، ودلالة بعض كلماتها. ومن الخصائص الصوتية الظاهرة في اللهجات العربية نجد الحركات المختلفة، وحروف المد، ومدى ميل بعض القبائل العربية إلى أصوات معينة دون غيرها، أو إحلال أصوات محددة محل غيرها، وما يختص بالهمزة تحقيقاً وتسهيلاً وحذفاً، وما يتصل بإبدال بعض الحروف ببعضها، والإدغام والحذف والترخيم إلخ من سمات وخصائص. وقد جعلت هذا الأخير (الترخيم) - في شيء من الإيجاز - مادة لهذا البحث.

إن بعض خصائص اللفظ ما بين إدغام، وحذف، وترخيم كان صورة من صور النطق التي تميز البدو عن غيرهم في شبه الجزيرة العربية. والإدغام، حسبما يُعرّفه اللغويون، هو تداخل حرفين متماثلين في المضعف، بحيث يصبحان حرفاً واحداً مشدداً، مثل رَدّ، وشَدّ... ولم يرد، ولم يشد. أما الإظهار أو (الفك) فهو، عكس الإدغام، أي جعل الحرف المشدد حرفين: أولهما متحرك، مثل: أرَدّ، وأشدّد (من "أرَدّ وأشدّ"). والإدغام والإظهار لهجتان معروفتان عند القبائل العربية، وقد نسب الرواة الإدغام إلى القبائل التميمية، والإظهار إلى القبائل الحجازية، ولذلك يُقال الإدغام تميمي والإظهار حجازي⁽¹⁾.

غير أن الإدغام ليس مقصوراً على تداخل حرفين متماثلين فحسب، بل يشمل أيضاً تداخل حرفين متقاربين في مخرجيهما، مثل الثاء والطاء، كما في "يتطوع"، التي تصبح "يطّوع" إدغاماً⁽²⁾، والطاء والذال في "يتذكر"

* أ.د علي عمار، جامعة تلمسان، الجزائر - Pr. Dr. Ali Ammar, University of Tlemcen, Algeria

Email : amar.ali520@outlook.com

التي تصبح "يَذْكُر" (3) والتاء والصاد في "يتصعد" التي تصبح "يصعد" (4). وقد اعتنى علماء القراءات بالإدغام والإظهار، بمعناهما الواسع، أكثر من عناية اللغويين والنحاة بهما، لأن جهود القراء منصبة على تجويد القرآن الكريم، وما ورد فيه من قراءات مختلفة تمثل لهجات عربية، وقد جاء في هذه القراءات ألفاظ كثيرة تمثل الإدغام، وأخرى الإظهار، وقد نجد الإدغام والإظهار ماثلين أيضاً في اللفظ الواحد تبعاً لاختلاف القراءات أو اللهجات.

ويتضح مما يرويه بعض الرواة أن الإدغام في عموميه هو إحدى سمات القبائل البدوية. وقد أدرك القدامى ذلك، فذكروا أن وجه الإدغام هو التخفيف، وأنه ثقل الالتقاء بين المتجانسين على ألسنتهم، فعمدوا بالإدغام إلى ضرب من الخفة (5)، كما ذكر في إدغام الحرفيين المتقاربين أن سببه هو تقريب الأصوات من بعضها (6).

ونجد قرائن كثيرة تؤيد هذا الكلام عند البدو، أما الحضر كالحجازيين، فمن شأنهم نطق الألفاظ في أناة، وتمييز الحروف بالإظهار الذي يتحقق به فصل الحروف عن بعضها، ولهذا فإن نسب الإظهار إلى قريش (7) هو أكثر دقة، باستثناء "ثقيف" - فأغلبهم من البدو الذين قد يلجؤون إلى إدغام كثير من الحروف المتماثلة أو المتقاربة. ولكن بعضهم الآخر يلجأ إلى حذف بعض الحروف الأخرى لتسهيل النطق. ومن ذلك قولهم: "يا أبا الحكا" يريدون "أبا الحكم"، و "لم يسم"، يريدون "لم يسمع" إلخ. وهذا ما يسمونه بالقطعة في لغة طيئ (8). ونجد لذلك أثراً في لهجات بعض البلاد العربية الآن، مثل بعض المناطق المصرية: المحلة الكبرى وما جاورها، وأبيار، وكثير من مناطق محافظتي البحيرة وبني سويف.

يُسمى هذا الحذف بالترخيم، وهو حذف آخر المنادي في أحوال خاصة، قد صاغ لها النحاة شروطاً وأوضاعاً، لسنا بصدد هنا، ولكن حسبنا منه في هذا المجال بعض الأمثلة الأخرى، مثل قولهم: يا "سعا"، ويا "حار"، ويا "مال"، ويا "صاح"، أي يا "سعاد" ويا "حارث"، ويا "مالك"، ويا "صاحب" تباعاً. ونجد هذا النوع من الترخيم كثيراً في الشعر العربي، مثل قول امرئ القيس:

أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فاجملي
ويقصد (أفاطمة)

وقوله:

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
أي: أصاحب.

وقول عمرو بن كلثوم:

قفي قبل التفرق يا طعينا نخبرك اليقين وتخبرينا
أي: يا طعينة.

وقول عنتر بن شدّاد العبسي:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
أي: يدعون عنتر، يعني نفسه.

وقول أبي المثلّم الخناعي يخاطب عامر بن العجلان:

أعام بن عجلان مقصورة بغيري من شبع عرض
أي: أعامر.

وما أكثر ذلك في شعر هؤلاء وغيرهم من الشعراء، وقبائلهم كلها أو جلها من بدو الصحراء في شبه الجزيرة العربية. ولا يمكن القول إن الحاجة إلى استقامة الوزن الشعري هي التي حملتهم على الترخيم، لأن كثرت هذه الصورة المستقيضة في أشعارهم تقلل من هذا الاحتمال. كما نجد الترخيم أيضاً في النثر، ولعله ليس مقصوراً على الأعلام (مخاطبة أسماء العلم)، بل يشمل ما سماه النحاة باسم الجنس، حتى إننا عندما نجد أن بعضهم منع ذلك، مثل "المبرد"، نرى من النحاة من ينبري له، ويفند رأيه، ويذكر أن كلامه محجوج بورود الترخيم سماعاً، ونظماً ونثراً. أما في النثر، فنقول العرب مثلاً "يا شا أدجني"، يريدون "يا شاة أدجني" أي أقيمي ولا تبرحي، وأما الشعر، فمن باب أولى نجده أيضاً، وإن كانت الكثرة هي لترخيم الأعلام، كما في الأمثلة أعلاه.

كما نجد الترخيم في بعض التلاوات، مثل قراءة "ابن مسعود": "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك" (9) حيث قرأها "يا مال" (10). ويروي الرواة أن "ابن عباس" لم يقرأ بها تأسيساً على أن أهل النار سيكونون في شغل عن هذا الترخيم (11). وأغلب الظن أن هذا القول مدسوس عليه، ولو صحت نسبته إليه، لما كان الحق في جانبه، لأن هذه لهجة عربية، وقراءة من القراءات يقرؤها "ابن مسعود"، وهي لهجة قومه، فلا شأن لها بأهل النار وما سيكونون عليه.

وإذا كان قد نُسب إلى ابن عباس عدم استحسان الترخيم في هذا الموطن، فقد حسنه غيره، مثل "ابن جني"، وعلة ذلك هي ضعف أهل النار عن إتمام الاسم. وهذا التعليل هو الآخر تعليل متكلف مثل التعليل السابق، المنسوب خطأً أو عمداً إلى "ابن عباس". ويعلق "الطبيي" على كلام "ابن جني" بأن هذا اعتذار منه لقراءة ابن مسعود، حيث ردها "ابن عباس" بقوله: "ما اشتغل أهل النار عن الترخيم" (12). والحق أنه لا وجه

لهذا الجدل، ولا الاعتراض، ولا الاعتذار، فإنما هي لهجة كما هو وارد في كثير من المراجع التي تعرض تلك الآية.

لا بد من الإشارة مرة أخرى إلى أن الترقيم منتشر عند البدو، ربما أكثر منه عند الحضر، وإن كان اللغويون والنحاة لم يسيروا إلى ذلك إشارة واضحة، غير أن شواهدهم على ذلك، حين نرجع إليها نجدها - في أغلبها - من شعر البدو، وقلما نجدها عند شعراء الحضر. ومع ذلك، لا يمكن القول إن الترقيم هو ديدن البدو في كل كلامهم، وإن عكسه هو لهجة الحضر في كل ما ينطقون، فهذا كلام لا يقول به أحد. غير أن القول في هذا هو أن الأصل في اللغة ليس قائماً على الترقيم، ولكنه أكثر ما يكون عند البدو، أو في اللهجات التميمية (تميم وما جاورها) مما يسميه بعض المحدثين بالمجموعة الشرقية من شبه الجزيرة العربية.

ومع ذلك، فاللغات واللهجات لا تلتزم خطأً واحداً تسير عليه ولا تحيد عنه، بل هي خاضعة للتأثير والتأثير والأخذ والعطاء، وذلك ما تقتضيه طبائع الأشياء، ولهذا لا نستبعد وجود شيء من الترقيم عند الحجازيين، لا سيما المجاورين منهم لبعض بطون المجموعة الشرقية، وقد رأينا إشارة منه إلى اللهجة القرشية في ألفاظ قليلة منطوقة على هذا الوجه، وإن كنا لا نجد شيئاً من ذلك في القرآن الكريم، إلا في بعض القراءات النادرة، مثل قراءة "عبد الله بن مسعود" التي أَلَمَحْنَا إليها سابقاً.

غير أنه قد ورد بعد ذلك في شعر مَنْ جَاؤُوا لاحقاً على اختلاف العصور، وأسس له النحاة القواعد النحوية، فلم يعد ظاهرة عابرة، ومن قبيله حذف الألف في بعض الأفعال مثل: اتجه، واتقى، واتخذ، التي تكتب "تجه، وتقى، وتخذ"، تبعاً.

ومن ذلك قول صخر الغي:

تجهنا غاديين فساء لتني بواحدها وأسأل عن تليدي

وقول القطامي:

إنني اهتديت لتسليم على دمن بالغمر غيرهن العصر الأول
صافت تمعج أعناق السيول بها من باكر سبط أو رائح يئل

وقول ساعدة بن جؤية:

يستقي به نفيان كل عشية فالمرء فوق سراته يتصيب

وقوله:

ومن العوادي إن تفتك ببغضه وتقاذف منها وأنتك ترقب

وقول أبي جندب بشأن بني لحيان:

تخذت نمران أثرهم دليلاً
وفروا في الحجاز ليعجزوني

وأغلب الظن أن هذا التخفيف ليس من قبيل ما ألجأت إليه الضرورة الشعرية، فإنه يوجد حال الاختيار في النثر أيضاً، فقد نسب "سيبويه" إلى بعض العرب قولهم: "تقى الله رجل فعل خيراً" (13). يريدون اتقى الله رجل، فيحذفون ويخففون. ثم إن قول الله تعالى: "لو شئت لاتخذت عليه أجراً" (14). قرأه بعض القراء السبعة "لتخذت" بالتخفيف.

وإذا ما نظرنا في المصحف ألفيناها دون ألف (أي دون همزة الوصل)، ليتسع رسمها لتلك القراءة، وقد قرأها كذلك عبد الله بن مسعود وآخرون بالحذف والتخفيف. ومن وجوه حذف أحد المتماثلين للتخفيف هو حذف التاء من أول المضارع إذا سبقته تاء المضارعة، مثل: "تكلم" أي تتكلم في قول زهير بن أبي سلمى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتنم

و"تشكى" أي تتشكى، في قول جنوب أخت عمرو ذي الكلب تَرثِيه:

وخرق تجاوزت مجهوله بوجناء حرف تشكى الكلال

و"توقى" أي تتوقى في قوله ساعدة بن جؤية:

ولقد نهيتك إن تكلف نائياً من دونه فوت عليك ومطلب

و"تجوب" أي تتجوب في قوله:

تجوب قد ترى إني لحمل على ما كان مرتقب ثقيل

و"تقطع" أي تتقطع في قول المُرْقَش الأكبر:

تراه بشكات المدجج بعدما تقطع أقران المعيرة يجمع

و"تشذر" أي تتشذر في قول لبيد بن ربيعة العامري:

وكثيرة عرياؤها مجهولة ترجى نوافلها وتخشى زامها

غلب تشذر بالدخول كأنها جن البدى رواسيا أقدامها

و"تذكر" أي تتذكر في قوله:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها

و"تناول" أي تتناول في قول طرفة بن العبد البكري:

خذول تراعي ريربا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي

والأمثلة على هذا المنوال لا حصر لها، لمن ذكرنا ولم نذكر من الشعراء، وذلك موجود في النثر أيضاً، لا في الشعر وحده.

ولعل من ذلك أيضاً ما ذكر عن "تتوفاهم" في الآية الكريمة: "الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم" (15)، في مصحف ابن مسعود "توفاهم" بقاء واحدة.

وهذا التخفيف بالحذف قد ألفه بعض العرب في كلمات قال اللغويون إن الحذف فيها راجع إلى كثرة الاستعمال مثل قولهم: "عم صباحاً" أي "انعم صباحاً"، فحذف حرفان من الكلمة، أحدهما الهمزة. والغرض من هذا الحذف هو التخفيف، وهو موجود في كلام بعض العرب شعراً ونثراً. ومن ذلك قول مالك بن خالد الخناعي:

تتادوا فقالوا يا لحيان ما تتوا عن المجد حتى تتخنوا القوم بالضرب
يريد : يا آل لحيان.

وفي قول صخر الغي:

ولست بمضطر ولا ذي ضراعة فخفض عليك القول يا با المثلّم
أي يا أبا المثلّم.

هذا وقد حكى أبو زيد الأنصاري في الاختيار "لاب لك" يريد "لا أبا لك". ومن المظاهر الأخرى لحذف الهمزة هي حذفها حينما تكون مكسورة بعد ألف في صيغة "فاعل"، مثل "راد" في موضع "رائد"، و"سارها" في موضع "سائرها"، و"هار" في موضع "هائر"، و"هال" في موضع "هائل"، و"صانت" أي "صائت". ومن أمثلة ذلك قول أبي ذؤيب:

فبات بجمع ثم إلى منى فأصبح رادا يبتغي المزج بالسحل
وسود ماء المرد فاها فلونه كلون النور فهي إدماء سارها
سارها : أي سائرها.

وقول أمية بن أبي عائد:

أحم الدماح بيني الكناس في دمت الترب ينثال هال

وقول أبو المثلّم الهذلي:

يكاد يدرج درجاً يقلبه
مس الأنامل صات قدحه زعل
وقول أبي خراش:

فلا وأبي لا تأكل الطير مثله
طويل النجاد غير هار ولا شهم
ومثله قول ساعدة بن جؤية:
فاستبعدوهم فها ضوهم كأنهم
أرجاء هار زفاه اليم منثلهم

وقد يخيل للمرء بادئ ذي بدء أن هذه وتلك ضرورة شعرية، ولكن ما يدفع هذا الاشتباه هو وجود نظير لها في القرآن الكريم في قوله تعالى: "على شفا جرف هار" (16). فقد ذكروا أن المعنى هنا هو "هائر" (17).

ومن مظاهر هذا التخفيف بالحذف ما نجده في نطق بعض أسماء القبائل المركبة من كلمتين مثل: بني القين، وبني الحارث، وبني الجهم ... حين حذفوا جزءاً من صدرها، فصارت: بلقين، وبلحارث، وبلجهم ... ويشبه هذا قولهم "م الآن" بدلاً من "من الآن" في مثل قول أبي صخر الهذلي:

كأنهما م الآن لم يتغيرا
وقد مر للدارين من بعدما عصر (18).

و(م الأرض) في موضع (من الأرض) كما في قول مليح بن الحكم:

فلما دنت م الأرض عولي فوقها
مراكب من ميس وبيض مدبج

و"م الأمر" في موضع "من الأمر" كما في قول قيس بن القيزارة:

تقول إلا أغويتنا إذا سرتنا
فيالك مرءا م الأمور الأشائم (19).

فهم يحذفون شطر حرف الجر "من"، وينحتون من الكلمتين كلمة واحدة. ويذكر "ابن جني" في المنصف أن علة حذف النون في مثل ذلك هي التقاء الساكنين (20). وهذا لا يخرج عن إطار الحذف للتخفيف. وربما ظن ظان أن هذا من قبيل الضرورة الشعرية؛ فظاهر الأمر قد يوحي بذلك، ولكنه نوع من الحذف يُنسب أحياناً إلى بعض قبائل اليمن، مثل خثعم وزبيد (21). والحق أنه مما تتسم به البنية البدوية بوجه عام. لكن يبدو أننا كلما توغلنا في البادية، كان ذلك أكثر وضوحاً وبروزاً. وهذا النمط من الحذف نجد له نظيراً في بعض اللهجات العربية المعاصرة. وإذا كان نطق الكلمتين كلمة واحدة يتم عن طريق حذف آخر أولاهما مثل: "م الآن"، م "الأرض" م "الأمور"، فقد يتم ذلك أيضاً بحذف أول ثانيتهما، مثل: "ويلمه، ويلمها"، ومنه قول المتنخل يرثي ولده:

ويلمه رجلا تأتي به غبنا
إذا تجرد لا تخال ولا بخل (22)

وقول قيس بن خويلد:

ويلمها لقحة أما تأديها
نسع شامية فيها الأعاصير (23)

وقول قيس بن العيزارة في "تأبط شراً":

فويلم شعل جر شعل على الحصى (24)

وقول أبي ذؤيب:

ويلم قتلى فويق القاع من عشر (25)

وقول سلمى بن المقعد :

ويلم ساعدة بن قيس عاديا (26)

وهكذا نرى للحذف مجاًلاً في اللهجات العربية، وربما ازداد هذا المجال رحابة واتساعاً عند المتوغلين في البداوة من جزيرة العرب. ولا يزال هذا الحذف ماثلاً في بعض اللهجات العربية وعند كثير من الأفراد الذين لا يستطيعون التحكم في جهاز النطق تحكماً كاملاً يتيح لهم نطق الكلمات بصورة واضحة تتمايز فيها الحروف بعضها عن بعض.

References

مراجع

- 1- ابن جني: المحتسب ص 153. الزمخشري: الفائق 111/3.
- 2- الزمخشري: الكشاف 246/1. ابن يعيش: شرح المفصل. أبو حيان: الارتشاف، ص 131. خالد الأزهرى: التصريح 128/1.
- 3- أبو حيان: البحر المحيط 117/5.
- 4- المرجع السابق: الموضع نفسه.
- 5- شرح المفصل 121/10.
- 6- المرجع السابق 124/10.
- 7- تاج العروس 94/2.
- 8- اللسان "قطع"
- 9- سورة الزخرف 43 الآية 77.
- 10- ابن خالوية، مختصر الشواذ ص 136.
- 11- المرجع السابق، نفس الصفحة.
- 12- ابن جني: المنصف 186/2.

- 13- الكتاب 439/2. اللسان "وقى".
- 14- سورة الكهف 18 الآية 77.
- 15- سورة النحل 16 الآية 28.
- 16- سورة التوبة 09 الآية 109.
- 17- نوار أبي زيد ص 30.
- 18- ابن جني: المنصف 229/2. البقية ص 93. الامالي 146/1 زهر الآداب 762/3.
- 19- شرح إشعار الهذليين (تحقيق فراج) 601/2.
- 20- ابن جني: المنصف 229/2.
- 21- حفني ناصف: مميزات لغات العرب ص 32.
- 22- اللسان "أمم". الاقتضاب ص 363.
- 23- شرح أشعار الهذليين (فراج) 607/2.
- 24- ديوان الهذليين 78/3.
- 25- ديوان الهذليين 44/1.
- 26- شرح أشعار الهذليين (فرج) 798/2.

للاستزادة

- أساس البلاغة للزمخشري.
- الارتشاف لأبي حيان.
- الأمالي للقالبي.
- بقية أشعار الهذليين.
- البحر المحيط لأبي حيان.
- تاج العروس للزبيدي.
- التصريح لخالد الأزهرى.
- خزانة الأدب للبغدادى.
- الخصائص لابن جني.
- ديوان الهذليين للعسكري.
- زهر الآداب للحصري.
- شرح أشعار الهذليين للعسكري.
- شرح المفصل لابن يعيش.
- الفائق للزمخشري.
- الكتاب لسبويه.

- اللسان لابن منظور.
- مختصر الشواذ لابن خالوية.
- مميزات لغات العرب لحفني ناصف.
- المنصف لابن جني.
- النوادر في اللغة لأبي زيد الانصاري